

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

عنوان الليسانس: علم اجتماع اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الحادية عشر: الرابط الاجتماعي عند بيار بورديو

يطبع النظرية الاجتماعية عند بيبير بورديو، كونها تحاول إعادة إنتاج المجتمع ضمن عالم رمزي، يحمل في طياته بعدا إمبريقيا، وقد عبر عن ذلك في مقولته الشهيرة: "النظرية بدون بحث إمبريقي خواء، والبحث الإمبريقي بدون نظرية هراء".

إن سوسيولوجيا بورديو حريصة حرصا شديدا على ضرورة تحويل السوسيولوجيا إلى علم مثل باقي العلوم، له لغته الخاصة به وقوانينه ومبادئه ومفاهيمه التفسيرية ونظرياته القائمة بذاتها، ولذلك لا نجده يتزرد في استخدام كل الأدوات والأسلحة الممكنة، لتحويل الخطاب السوسيولوجي إلى خطاب علمي ممنهج، فهو بذلك يوجه "النقد الصارم لمجموعة من النزوعات المنتشرة كثيرا بين علماء الاجتماع، والتي أساءت إلى هذا العلم ومنعت تطوره في اتجاه بناء نظرياته كالنزعة الاقتصادية "التحليل الماركسي" التي تفسر كل شيء بالعودة إلى الاقتصاد، والنزعة الوصفية التي تكتفي بملاحظة الوقائع والظواهر الاجتماعية دون ان تفسر في النهاية أي شيء".

فموضوعات العلم لا توجد على نحو جاهز وبشكل مباشر في الواقع، ولا يمكن تفسيره انطلاقا من التمثلات الحاضرة عند جميع الأفراد التي لها ارتباط بالحس المشترك. ومن هذا المنطلق يقول بيبير بورديو "أن تشيد الموضوع العلمي يعني أولا وقبل كل شيء قطع أواصر الصلة بالحس المشترك أي ببعض التمثلات التي يقتسمها الجميع "...

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

فما هو مشيد مسبقا يوجد في كل مكان، ويجد السوسيولوجي محاصرا به مثل جميع الأفراد، فهو ملزم بأن يعرف عالما "العالم الاجتماعي" يعتبر هو نفسه نتاجا له".¹

لم يتوقف نقد بيير بورديو للتصورات الماركسية ورفع الستار عن عوائقها بل ذهب إزاء ذلك إلى البحث عن إجابات سوسيولوجية للظاهرة الاجتماعية عن طريق ابتكاره لمجموعة من المفاهيم الأساسية:

1. مفهوم الحقل: من الإبداعات التي ارتبطت باسم بيير بورديو نحته لمفهوم الحقل الاجتماعي، فقد رفض تصور ماركس للمجتمع كوحدة متكاملة منسجمة تعيش حالة من الصراع الأبدي بين طبقاته، بل فضل بورديو تقسيم المجتمع إلى حقول لها استقلالها النسبي ومنطقها الخاص بها بعيدا عن كل النزاعات المختزلة للوقائع والحقائق الاجتماعية " كالحقل السياسي، الحقل الاقتصادي، الحقل الثقافي ..."، ففي كتابه "أشياء مقولة" والذي نشره سنة 1987 يرى أن "العمل الذي أعده حول نظرية الحقول، والتي يمكن نعتها بتعدد العوالم، تنتج بواسطة التأمل حول تعددية المنطق الذي يتوافق مع العوالم المختلفة، بمعنى الحقول كأماكن تشكل فيها الحس المشترك، أماكن مشتركة، أنساق نموذجية، لا يمكن اختزال بعضها في البعض الآخر".

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

إن هذا التقسيم يمكن عالم الاجتماع من دراسة المجال والتعرف عليه في جوهره كما هو، وذلك برصد مختلف معطياته وأوضاعه ومؤثراته، دون الوقوع في الأحكام العامة.

إن بنيوية بورديو حاضرة هنا، بل هي بنيوية تكوينية، فالحقل في كلمتين بنية مبنية *Structure structurée* أي بنية موضوعية مستقلة ومحايذة عن وعي وإرادة الأفراد وتمثلاتهم من جهة ومن جهة أخرى فالحقل يتكون تاريخياً عبر مسلسل استقلال طويل.

2- مفهوم الهابيتوس: في كتابه الحس العملي تطرق ببير بورديو إلى مفهوم الهابيتوس فعرفه على أنه نسق من الاستعدادات المستمرة والقابلة للتحويل والنقل، بنى مبنية مستعدة للاشتغال بصفتها مبادئ مولدة ومنظمة لممارسات وتمثلات". فالأبييتوس في دلالاته وصيغته النهائية هو "المجتمع وقد استقل في الجسم عن طريق سيرورة التربية والتنشئة الاجتماعية والتعليم والترويض، فالمجتمع هنا بكل قيمه وأخلاقياته، بكل محددات السلوك والتفكير والاختيار... إنه ذلك التاريخ الذي يسكن الأشخاص في صورة نظام قار للمؤهلات والمواقف".

الأبييتوس عند ببير بورديو دليل على قوى الأصل في الوسط الاجتماعي، وهي دعوة إلى التقريب بين الحتمية الاجتماعية من جهة والفرديانية من جهة أخرى، إنه يسعى إلى كشف ما هو خارجي - داخلي، كشف المشترك في البحث عما هو فردي، فالبنيتين

د. تالي جمال محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي

الداخلية والخارجية هما صورتين لحقيقة واحدة، للتاريخ المشترك، ذلك التاريخ المنقوش في الذات وفي الأشياء.

3- مفهوم الرأسمال: انتقد النظرة الماركسية للرأسمال التي حصرت هذا المفهوم في الجانب المادي، واعتبرت المجتمع ما هو إلا صراع مستمر بين الطبقات الاجتماعية في إطار مادي تاريخي.

*- الرأسمال الثقافي: إنه مجموع المعارف والكفايات والمهارات من مختلف الأصناف النظرية والعملية في إطار ثقافة معينة، واستثماره في حقل اجتماعي معين، يجلب لمالكه قيمة مضافة مادية أو رمزية أوهما معا.

*- الرأسمال الاجتماعي: هو مجموع الثروات الفعلية أو المفترضة التي يتوفر عليها فرد ما أو جماعة معينة بسبب امتلاكه لشبكة مستمرة من العلاقات، ومن المعارف والاعترافات المتبادلة الممأسسة تقريبا، أي مجموع الرساميل والسلطات التي تخول لشبكة ما إمكانية تداولها. ينبغي التسليم بأن الرساميل يمكن أن تتخذ أشكالا متعددة، إذا ما تطلب الأمر تفسير بنية وحركية المجتمعات المتميزة.

4 - مفهوم العنف والسلطة الرمزيين:

لكي نفهم بشكل واضح استعمال هذين المفهومين عند بورديو لا بد من الوقوف أولا عند التصور الماركسي للعنف والسلطة، وهنا سنأخذ أحد النماذج الواضحة في علم الاجتماع الألماني والتي تعتبر محطة أساسية في قلب التنظير السياسي، إنه عالم

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

الاجتماع الألماني ماكس فيبر، يذهب هذا الأخير في نفس تصور ماركس للعنف، فيعتبر أن العنف المادي -أو بتعبير بورديو العنف البوليسي- تربطه علاقة حميمة بالدولة فمنذ القديم اتخذت التجمعات السياسية المختلفة ... العنف المادي وسيلة عادية للسلطة. وعلى العكس من ذلك يجب أن نتصور الدولة المعاصرة كجماعة بشرية تطالب بحق احتكار استعمال العنف الفيزيائي المشروع لصالحها "ماكس".²

إن هذا التصور لعلاقة العنف بالسلطة يظل قاصرا من وجهة نظر بيير بورديو، فالعنف الرمزي بدوره وسيلة لممارسة السلطة فهو " شكل من أشكال السلطة تمارس على فاعل إجتماعي بتواطؤ منه، وكيفما كان الحال فهذه الصياغة خطيرة، لا تفتح الباب أمام مناقشات مدرسية حول مسألة معرفة ما إذا كانت السلطة تأتي من أسفل وإذا ما كان المسود يرغب في الحالة المفروضة عليه "... فإن أشدها "أشكال العنف " هو ذلك الذي يمارس في نظام الأشياء"³

إن العنف الرمزي حسب بيير بورديو هو عنف غير مرئي، لطيف ولين وعذب، يقوم على إلحاق الضرر بالآخرين عبر اللغة والتربية...، إلى جانب ذلك يذهب بيير بورديو في كتابه "إجابات" إلى أنه "يمكن ان يحقق العنف الرمزي نتائج أحسن مما يحققه العنف السياسي البوليسي...". وهذا هو جوهر اختلاف بيير بورديو مع التيار الماركسي، وهنا يعود في نفس المؤلف السابق إلى التصريح على " أن احد اكبر مظاهر

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

النقص في الماركسية هوانها لم تخل مكانا لمثل هذه الأشكال اللطيفة من العنف - أي العنف الرمزي - التي هي فاعلة ومؤثرة حتى في المجال الاقتصادي".

تتمتع إذن السلطة الرمزية بمجموعة من المميزات والخصائص:

- لها القدرة على تكوين المعطى عن طريق العبارات اللفظية.

- لها قدرة على الإقناع، وإعطاء تصور حول العالم أو تحويله، ومن ثم قدرة على تحويل التأثير في العالم وبالتالي - العالم نفسه.

- تعتبر بمثابة عصا سحرية تمكن من بلوغ ما يعادل قوة طبيعية أو اقتصادية، وذلك بفضل قدرتها على التعبئة.

قراءة في سوسيولوجيا الهيمنة:

يتميز أنصار السوسيولوجيا النقدية أو الهيمنة كما يسميها البعض، برفضهم لكل سوسيولوجيا خارجة عن إطارهم. إذ نجّلنّ بعضهم يتّهم سوسيولوجيا إدغار موران (Edgar Morin) وميشيل مافيزولي (Michel Maffesoli) أنّها معيارية أو ميتافيزيقية، وذلك لعدة أسباب تبدو معظمها ذاتية ودّ ما لأنهما "معروفان لدى الجمهور الواسع نظرا لأن وسائل الإعلام استدعتهما كثيرا من المرات إلى برامجها وقدمتهما على

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

أنهما عالما اجتماع، وذلك من أجل أن يقدم رأيهما في المواضيع الاجتماعية المتنوعة جدا^[4].

علما أن أفكارهما العلمية والفلسفية ازدادت أهمية عن باقي الأطروحات المصبوغة بالإيديولوجية، والتي لم تعد قادرة على أن تتكيف مع التحولات العالمية التي أثرت في المجتمعات الإنسانية، وأدت إلى تعقيد الواقع الاجتماعي⁵ جعلها تخشى من كل فكر علمي إبداعي يمكن أن يسهم في فهم كل ما يحيط بالحياة الاجتماعية. لهذا فإن خطاب الهيمنة أو الحتمية يعتبر أن "علم الاجتماع لم يتخل بعد كلياً عن التفسيرات الميتافيزيقية التي ترجع أصل الظواهر الاجتماعية إلى كائنات مشكوك فيها وذات قوة عليا"⁵.

وعندما نريد البحث عن بعض الفاعلين الاجتماعيين مثل الحركات الاجتماعية باعتبارها تمتلك القدرة على أثمر من الهوية الدفاعية إلى الهوية الهجومية، يتدخل خطاب الهيمنة لكي يلغي دور الفاعل. "فاليسار أو اليسار المتشدد يخلق أفكاراً حتمية إلى درجة استخدام نفس تحليل خصومه في بعض الأحيان كما حصل مع الماركسية التي تطابقت توقعاتها في الواقع مع توقعات الاقتصاد الليبرالي"^[7].

يرفض أنصار السوسيولوجيا النقدية كل سوسيولوجية غير نقدية للهيمنة، لأن ذلك يكبح الفاعلين على المقاومة، وهو ما يجعل من هذه السوسيولوجيا كأنها مسيسة

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

وتتطوي على انحراف كبير في فهم العالم الاجتماعي، فهي تربط كل شيء بالهيمنة على المستوى الروابط الاجتماعية والطبقات الاجتماعية والحقول والرساميل.

فضلا عن ذلك، فإن هذه السوسيولوجيا ترى نفسها أنها تلبي حاجيات الأفراد ومصالح الجماعات المهمشة من خلال إبراز التفاوت والتمايز الاجتماعي الحاصل في المجتمعات الرأسمالية، عن طريق تفكيك آليات الهيمنة والسلطة التي تميز الحقول الاجتماعية.

فأنصار السوسيولوجيا النقدية، مثل لويك فاكون (Loïc Wacquant) يعتبرون أن الحقول الاجتماعية قائمة على الصراع ولا تخلو من التمايز الطبقي. وبالتالي فإن الهدف من السوسيولوجيا النقدية هي دفع الأفراد والجماعات المهمشة إلى المقاومة والنضال من أجل تحرير أنفسهم من الهيمنة، فمن الأمور المهمة لهذا التقليد السوسيولوجي هو مفهوم المثقفين الملتزمين اجتماعيا الذين يتمثل واجبهم في إعادة ضخ ثمار انعكاساتهم وملاحظاتهم في المجال المدني والعام⁶.

الرابط الاجتماعي كمفهوم سوسيولوجي يتأسس من خلال الحقل كنظرية معرفية فريدة في سوسيولوجيا بيار بورديو، الحقل عند بيبير بورديو ليس مجرد تمثيل ذاتي أو بناء نظري للعالم، بل على العكس له وجود واقعي مادي، تعكس صورته المؤسسات التي تعبر عنه وتحدد كيانه، لكن ليس بعيدا عن مجموعة من الفاعلين الاجتماعيين

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

الذين يعتبرون بمثابة عملاء قبلوا استثمار ذواتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية داخل حقل معين، بل أكثر من ذلك سمحوا لأنفسهم أن يتعرضوا لشتى أنواع المنافسة والصراع لكن ليس بصورة مادية بل بصورة رمزية.

فالأفراد ينتمون إلى المجتمع الذي يضم مجموعة من الحقول المتداخلة فيما بينها، ويبيدي استعداده للانخراط فيه، لكنه يتعرض لشتى أنواع العنف الرمزي والهيمنة بصورة غير مادية، وقليلون أولئك الذين يملكون رساميل اجتماعية وثقافية و.... ، مع العلم أن المجتمع تتنافس فيه مجموعة من الرساميل، الكل يسعى إلى تحصيلها ومراكمتها واستثمارها في نفس الوقت، بعض هذه الرساميل يمكن أن تتحول إلى رأسمال رمزي، حتى يتم الاعتراف بها اجتماعيا، تصبح بذلك مصدرا لسلطة مشروعة فعالة في لحظات الصراع، هذه الأنواع هي بالإضافة إلى الرأسمال الرمزي، هناك الرأسمال الاجتماعي، الثقافي، ...

فيورديو لا ينظر إلى المجتمع كظواهر اجتماعية جاهزة يقوم الدارس بوصف أوجهها وأجزائها في وضعها الخام، بل كموضوع للبحث العلمي، بل بعبارة أخرى فهو ينظر إليه كعملية بناء تقوم على التمييز بين مجموعة من الحقول المختلفة، بحيث لا يمكن فهم مستوياتها إلا بالإنفاذ إلى نسق من العلاقات الداخلية الجوهرية التي كانت بعيدة من قبل عن المساءلة.

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

في حين ركز " بيير بورديو " على أن الفرد عندما يشكل علاقات اجتماعية في الحقل الاجتماعي يعتبر بمثابة رأسمال اجتماعي، إذ أن انتماء الفرد إلى جماعة ما يمنحه سندا من الثقة والأمان. وعليه مادام الفرد مرتبط بالهابيتوس فإنه بمثابة السيطرة والهيمنة الاجتماعية التي تفرض نفسها عليه، ويعيد إنتاج العلاقة من خلال الاستعدادات الاجتماعية والتي تفرض نفسها على الفرد وتحد من حريته دون دراية أو علم منه بمعنى أنها عملية غرس هيمنة وسيطرة المجتمع على الفرد حتى يصبح غير واع بهذه الهيمنة والسيطرة. إضافة إلى التفاعل اليومي مع الأسرة والأصدقاء، وبالتالي نستطيع أن نقول عن ذلك الفرد قد كون رأس مال رمزي في إطار الجماعة المتفاعل فيها.